جمال عبد الناصر

فى هذا العالم مكانان لا يمكن للإنسان فيهما أن يهرب من ذاته.. هما الحرب والسجن.. وفى الزنزانة رقم ٥٤ عشت مع نفسى.. تلازمنى والازمها ليل نهار.. وحده رهيبة لم يكن هناك من سبيل إلى الخلاص منها سوى أن أعيش مع نفسى.. وفعلا عشت معها.. ولكن رغم هذه المعايشة لم استطع أن أنفذ إليها كان شيئا ما يقف بينى وبينها..

لمات كنت أعانى منها منذ زمن ولكنى لم أدركها تمام الإدراك لأننى لم استطع أن أنقلها إلى منطقة الضوء..

وعندما سمحوا لنا فى السجن بالكتب والمجلات والصحف انكببت عليها أقرأ فى نهم واجد فى كل سطر شيئا جديدا يفتح أمامى أفاقا لم أعرفها من قبل.

ولم يقتصر أثر قراءاتى المتعددة على توسيع أفاقى الفكرية والعاطفية بل لقد ساعدتنى هذه القراءات على المزيد من التعرف على الذات.. فاستطعت أن أتخلص من أزمة عصبية كنت أعانى منها منذ زمن وكانت بسبب القبض على فى الساعة الثانية صباحا فى برد الشتاء القارس فى كل من عامى ٤٢و ٤٦.

لم أكن أدرك طبيعة هذه الأزمة ولكنى كنت أشعر أنها تعكر صفو سلامى الروحى.. إلى أن دخلت السجن وعشت مع نفسى فطفت هذه المعاناة على السطح تلقائيا.. أسبوع واحد فى السجن يكفى لهذا..

أما كيف تخلصت من هذه الأزمة فالفضل يرجع إلى مقال قرأته فى الـ "ريدرز دايجست" لأحد علماء النفس الأمريكان.. كانت خلاصة المقال أو النتيجة التى وصل إليها الطبيب النفسانى بعد تجارب ٢٤ سنة هى أن الإنسان فى أية مرحلة من مراحل حياته معرض لأن يصاب بصدمة تكون نتيجتها أن يحس أن كل شيء حوله مغلق وكأنه فى سجن لا باب له..

أول باب لهذا السجن أن يعرف الإنسان ماذا يضايقه.. وثانى باب.. الإيمان.. ما معنى الإيمان؟ .. أن تنظر إلى أى شيء مؤلم يحدث على أنه قدر لابد من مواجهته وتحمله.. وبعد ذلك تتغلب على الآثار الناجمة عن هذا..

فيجب ألا تفكر أنه ليس هناك حل لأية مشكلة.. لأن الحل دائما هناك.. ما الذى يجعلك تفكر هكذا؟ إيمانك بأن الله قد خلقك لأن عليك دورا يجب أن تؤديه فى هذه الحيـاة.. والإلـه الذى خلقك ليس شريرا على الإطلاق.. بالعكس إنه خير جيدا.. لا كما يصوره لنا الشيخ فـى كتاب القرية جبار.. مخيف.

فالعلاقة المثلى بين الإنسان والله لا تنبنى على الخوف أو على الثواب والعقاب.. بـل على قيمة أسمى من كل قيمة.. وهى الصداقة.. فمن صفات الخالق الرحمة والعدل والحـب.. ثم هو قادر على كل شيء لأنه مصدر الأشياء جميعا.. فإذا اتخـذت منـه صـديقا منحـك الاطمئنان. فتحت أية ظروف وفى جميع الأحوال تحبه ويحبك..

أن تحليل العالم النفسانى لم يحل إلى عقدة الهزة العصبية فقط.. بل فتح أمامى آفاقـا من الحب لا حدود لها فى علاقاتى بالكون.. كانت كامنة فى خضم الحياة العادية فكشفت عنها تجربة السجن ومعاناتها بحيث أصبح الحب المنطلق الرئيسى لكل أفعالى ومشاعرى..

من أجل هذا.. ولأنى أصبحت مليئا باليقين والاطمئنان لم أهتز لحظة واحـدة وسـط الأحداث المتقلبة التى واكبت حياتى فى جميع مراحل العمر.. ولم يخذلنى الحب مرة واحدة.. بل كان دائما ينتصر فى النهاية..

وهذه حكايتى أو طرف منها مع جمال عبد الناصر.. ففى الثمانى عشرة سـنة التـى لازمته فيها.. كانت هناك أوقات لا استطيع فيها أن أفهمه أو أن أقر بعض تصرفاته.. ومـع ذلك كانت مشاعرى نحوه هى نفس المشاعر.. الحب والحب وحده..

وقد تساءل البعض فى حيرة كيف قضيت هذه الفترة الطويلة مع عبد الناصر من غير أن يقع بيننا ما وقع بينه وبين بقية زملائه مثلما تساءل صحفى أجنبى فى لندن قائلا أما أننى كنت لا أساوى شيئا على الإطلاق وأما أنى كنت خبيثا غاية الخبث بحيث تحاشيت الـصراع معه.. وبقيت أنا الرجل الوحيد من رجال الثورة الذى لم يمسسه سوء بل على العكس عنـدما فارق عبد الناصر الحياة كنت أنا نائب رئيس الجمهورية الوحيد.

وأن دل هذا التساؤل الساذج على شيء فإنما يدل على جهل أصحابه بطبيعتى فلا أنا كنت عديم الصفة أثناء حياة عبد الناصر ولا كنت خبيثا أو لئيما فى حياتى قط.. كل ما فـى الأمر أنى وعبد الناصر تصادقنا ونحن فى سن التاسعة عشرة ثم جاءت الثورة وأصبح هـو رئيسا لجمهورية مصر.. فقلت فى نفسى أهلا وسهلا.. صديقى الذى اثق فيه قد صار رئـيس

جمهورية وهذا شيء يسعدنى .. ونفس الإحساس شعرت به عندما أصبح جمال عبد الناصر زعيما للأمة العربية وبنى حوله هالة كبيرة.

أحيانا كنا نختلف وتحدث بيننا جفوة قد تستمر شهرين أو أكثر يرجع السبب فيها ربما إلى اختلافنا فى الرأى أو إلى دس بعض من لهم تأثير عليه ممن حوله.. فقد كان عبد الناصر يؤمن بالتقارير ويميل بطبعه إلى الإصغاء للقيل والقال..

ولكن أيا كان الأمر فلم يحدث مرة واحدة أن وضعت نفسى موضع الدفاع.. فليس من طبعى أن أفعل هذا بالنسبة لعبد الناصر أو لغيره من الناس.. طبعا كانت تنتهى الجفوة مهما طالت عندما يتصل بى تليفونيا ويسأل أين كنت طوال هذه الأيام ولماذا لم أتصل به..؟ .. وكنت أجيب بانه كان لابد مشغولا ولذلك فضلت أن أتركه لمشغولياته.. ثمنلتقى وكان شيئا لم يكن.. حدث هذا مرارا عديدة ولكنى كنت أقابل كل ما يفعله عبد الناصر بالحب الخالص من جانبى..

لقد تسلم تنظيم الضباط الأحرار فى نهاية سنة ١٩٤٢ وقطع به شوطا طويلا استغرق ٦ سنوات كاملة كنت أنا أثنائها فى السجون والمعتقلات .. ثم بعد خروجى من السجن كان لابد لى من العودة إلى الجيش لكى أشاركه وزملاءه فى الجهود التى بدأتها ثم استأنفوها هم من بعدى.. وفعلا تحقق هذا عندما عدت إلى الجيش عام ١٩٥٠.

وصدرت النشرة العسكرية بعودتى إلى القوات المسلحة اعتبارا من ١٥ يناير ١٩٥٠ برتبة يوزباشى- وهى الرتبة التى خرجت بها- وكان زملائى فى الجيش قد سبقونى فى ذلك الوقت برتبتين .. رتبة صاغ ورتبة بكباشى..

كان أول من زارنى مهنئا جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر علمت من عبد الناصر أن تنظيم الضباط الأحرار قد أصبح أوسع انتشارا وأن قوته تشتد يوما بعد يوم.. وكأنما أراد أن يثبت لى مدى قوة التنظيم أو أن أتقدم لامتحانات الترقية بحيث استعيد ما فقدت من رتب وأنا خارج الجيش.. وأن لا أهتم بالصعاب التى سوف تواجهنى.. فمهما كان شانها سيذللها التنظيم ويتخطاها.. وفعلا تم هذا وحصلت على رتبة بكباشى فى وقت قصير.

طلب منى عبد الناصر أن لا أقوم بأى نشاط سياسي واضح.. لأنى بسبب تاريخى النضالى لابد أن أكون بطبيعة الحال مراقبا ولو أن هذا لم يمنع جمال من أن يكشف لى عن خريطة الضباط فى وحدات الجيش المختلفة.. فكنت أزورهم وأتبادل الحديث معهم ولكنها

كانت جميعا أحاديث ودية لا علاقة لها بالسياسة .. فلم يكن من المفروض فـى التنظـيم أن أكشف عن نفسى أو أن أشعرهم أننى أعرف أنهم ينتمون إلى الضباط الأحرار.

كانت هذه قاعدة أساسية أرساها عبد الناصر يوم تسلمه التنظيم من بعدى عندما قبضوا على فى صيف ١٩٤٢ .. وهى أن يظل تشكيل كل خلية سرا لا يعرفه إلا أعضاؤها.

كان ا لرجل الثانى بعدى فى ذلك الوقت هو عبد المنعم عبد الرءوف الذى ظل علـى اتصال بالشيخ حسن البنا رائد الأخوان المسلمين والذى كان على اتفاق تام معى فى أن تنظيم الضباط الأحرار يجب أن لا يخضع لأية هيئة أو لأى تنظيم حزبى لأن الهدف منه هو خدمة مصر بأجمعها لا فئة معينة..

عندما دخلت المعتل كان عبد الناصر ما زال فى السودان ولكن بمجرد نزوله بكتيبته ووصوله مصر أواخر ١٩٤٢ اتصل به عبد المنعم عبد الرءوف لضمه إلى التنظيم.. فقد كان عبد الناصر من الضباط الممتازين وكانت هذه هى القاعدة التى أرسيتها.. أى أن لا ينـضم إلى التنظيم إلا من كان متميزا فى عمله بالقوات المسلحة.. فالضابط الممتـاز موضـع ثقـة الجميع.. ومن السهل أن ينقاد إليه الآخرون..

استجاب عبد الناصر على الفور.. ولم يكن من الصعب عليه بعد ذلك أن يزيح عبـد المنعم عبد الرءوف من طريقه وأن يتولى هو قيادة التنظيم بدلا منه..

كانت قيادة عبد الناصر لتنظيم الضباط الأحرار تختلف عن قيادتى.. فقد لجـأ إلـى تكوين خلايا سرية فى الجيش.. كل خلية منها لا تعرف الأخرى وتكاثرت الخلايا يوما بعـد يوم.. حتى شملت القوات المسلحة بأجمعها وخاصة المناطق الحساسة فيها مثل إدارة الجيش.

فى سنة١٩٥١ شعر عبد الناصر أن التنظيم قد وصل مرحلة النضج وأنه لابـد مـن قيادة خاصة.. وأن الكثيرين من أعضائه قد بدأوا يتساءلون عن قائد التنظيم أو قادته.. بينمـا كان بمصر فى هذا الوقت خمسة أجهزة سرية هى البوليس الـسياسي والمباحـث الجنائيـة والمخابرات الحربية للجيش.. والمخابرات الخاصة بالإنجليز والـ – C.E.A الأمريكية التى دخلت مصر بعد الحرب العالمية الثانية.. هذا بخلاف جهاز آخر خاص بالملك ويتبع السراى مباشرة..

لذلكم كان الحرص مطلوبا فى تكوين الهيئة التأسيسية فبدأ عبد الناصر فـــى اختيـــار أعضائها ممن احتك بهم هو شخصيا فى حرب فلسطين وممن له معهم صداقةثم ممن كـــانوا أصلا قادة التنظيم قبل أن يتسلمه..

وقد يبدوا اختيار عبد الناصر لى دليلا على الوفاء.. صحيح أننى كنت قد بدأت تنظيم الضباط الأحرار .. ولكننى بقيت بعيدا عن التنظيم ثمانى سنوات وهى الفترة ما بين فـصلى من الجيش سنة ٤٢ إلى أن عدت إليه سنة ٥٠ .. ولكن لم يكن عبد الناصر ينتمى إلى ذلـك الصنف من الرجال الذين تحركهم مشاعرهم نحو الآخرين إلا إذا كانت هذه المشاعر وليـدة صداقة وطيدة الأركان كصداقته مع عبد الحكيم عامر.

ورغم أننا تعارفنا على بعض وعمرنا لم يتجاوز الـــ ١٩ سنة.. إلا أننى لا اسـتطيع أن أقول سوى أن علاقتنا كانت علاقة احترام وثقة من جانب كل منا.. وليست صداقة علـــى الإطلاق.. فلم يكن من السهل على عبد الناصر أن ينشيء علاقة صداقة بمعنى الكلمة مع أى إنسان وهو المتشكك دائما.. الحذر.. المليء بالمرارة.. العصبى المزاج..

لا أقصد بهذا تجريد عبد الناصر فى اختياره لى من عامل الوفاء ولكننى أضيف إلى هذا عاملا آخر وهو الذكاء.. فمن خط سيرى فى القوات المسلحة ومن علمه منذ أن تقابلنا فى مقتبل العمر أنى رجل ذو مبادئ وقيم.. لم يكن من الصعب على عبد الناصر أن يدرك أنـــه يمكنه الاعتماد على وأن إضافته لى إلى الهيئة التأسيسية سوف تجعلنى مدى العمر وفيا لهـذا الوفاء من جانبه..

ومما لا شك فيه أن عبد الناصر، وهو الحذر دائما بتكوينه، كان واثقا كل الثقة أننـــى ساقف إلى جانبه باعتبارى قوة لها تجربتها وتاريخها.. قوة ستسانده فى الصراعات التى بدأت داخل الهيئة التأسيسية حتى قبل قيام الثورة..

ولذلك كان يهرع إلى عندما أعود إلى القاهرة فى أجازة ليشرح لى المصاعب التـــى يلاقيها من بعض الأعضاء.. وعندما تعود بى الذاكرة إلى تلك الأيام البعيدة لا أبالغ إذا قلـت أن عبد الناصر كان يقضى معى خمسة أيام كاملة فى كل أجازة من أجازاتى التى لـم تكـن تتعدى الأسبوع..

وكنا كل مرة نتدارس أحوال التنظيم والصعاب والمشاكل التى تواجهنا.. هــذا إلـــى جانب أن عبد الناصر كان يضع تجربتى محل تقدير.. أذكر مثلا أنه فى سنة ١٩٥١ طــرأت

له فكرة أن تبدأ الثورة بحركة اغتيالات واسعة.. وسألنى فى هذا فقلت له: غلط يا جمال.. ما هى النتيجة.. إلى أين ستصل..؟.. أن الجهد الذى يبذل فى حركة الاغتيالات يساوى دائما الجهد الذى يبذل فى قيام الثورة ولذلك دعنى نأخذ الطريق المباشر المستقيم .. وليكن هدفنا المباشر هو الثورة..

ثم قامت الثورة فى ١٩٥٢ وساهمت فيها ولكن لم تكن مساهمتى بالأمر الذى يهمنى فى حد ذاته.. الأهم من كل شيء أن الثورة قد قامت وتحقق بها الحلم الذى استولى على حياتى منذ أن كنت صبيا لم أبلغ الثانية عشرة بعد..

هذا ما جعلنى أعيش مع عبد الناصر ١٨ سنة دون صراع.. لأنى لم أكن أريد شيئا.. لم تكن لى مطالب من أى نوع وفى أى وضع كنت.. عضوا فى مجلس قيادة الثورة أو سكرتيرا للمؤتمر الإسلامى أو رئيس تحرير جريدة الجمهورية أو وكيلا مجلس الأمة.. أو رئيس مجلس الأمة.. لم يتغير حبى لعبد الناصر أو تختلف مشاعرى نحوه.. فأنا إلى جانبه منتصرا كان أو مهزوما..

ولعل هذا ما جعل عبد الناصر يلتفت حوله بعد ١٨ سنة وينتبه إلى أن هناك إنسانا لم تقم بينه وبينه معركة فى يوم ما..

فقد عشت مع عبد الناصر وفى عنقى دين له لن أنساه طوال حياتى.. فلن أنسى له أنه ضمنى إلى تنظيم الضباط الأحرار بعد رجوعى إلى الجيش، وكنت قد أبعدت لمدة ٨ سنوات قضيتها فى المعتقل والسجن..

فأنا لست مثل بعض زملاء عبد الناصر الذين اتهموه بأنه كرومر، أو الذين تسلقوا فى حياته، فقد تحملت المسئولية وأعلنت أننى مسئول عن كل قرار اتخذه عبد الناصر طوال فترة حكمه..

وهذا ما جعلنى أقول أن الحب ينتصر فى النهاية.. فلم يكن من السهل أن تزول الغشاوة من عينى عبد الناصر.. وداخله مليء بتناقضات لا يعلمها إلا الله.. يحتم على واجبى كصديق أن لا أكشفها أو أفصح عنها.. ولكنها كانت موجودة.. عبد الناصر مات دون أن يستمتع بحياته كما يستمتع الآخرون.. فقد قضاها كلها بين انفعال وانفعال.. القلق يأكله أكلا فقد كان يفترض الشك فى كل إنسان مسبقا.. وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا أن خلف عبد

www.anwarsadat.org

الناصر وراءه تركة رهيبة من الحقد سواء بين زملائه أقرب الناس غليه أو داخل البلد نفسها بجميع طبقاتها..

وهذا هو السبب الذى جعل بعض هؤلاء الموتورين ينفثون عن حقـدهم علـى عبـد الناصر بعد وفاته، ويتهمونه فى ذمته المالية.

وأشهد أنا، وكل من عرف عبد الناصر عن قرب أنه بريء من هذه التهمة تماما.

ولكن كما قلت وما زلت أكرر. أنتصر الحب فى النهاية.. هذا الحب الذى كان وليـد المرارة والألم فى الزنزانة ٥٤.. فلا شيء مثل المعاناة يصقل النفس ويزيل عنهـا الـصدأ ويكشف عن معدنها الأصيل.. فقد تكشف لى أنى بطبعى وتكوينى أحب الخير.. وأن الحب هو الدافع الحقيقى لكل ما أفعل... وبدون الحب لا أستطيع فعلا أن أعمل..

أغلب الناس يبهرهم النجاح الخارجى- ما يصلون إليه من مراكز اجتماعية أو مال أو سلطان – وإذا تغيرت هذه الصورة لسبب أو لآخر اهتزوا وأصابهم الانهيار.. فهم لا يعرفون الصمود لأنهم لا يعرفون الصدق مع النفس أو مع الآخرين فالغاية عندهم دائما تبرر الوسيلة..

أما أنا فقد درجت على ان تكون صورة الذات فى نظرى أهم عندهم من صورتى فى نظر الناس.. رئاسة الجمهورية ليست أكبر عندى من أنور السادات.. فأنور السادات هو نفس أنور السادات فى أى موقع وتحت أية ظروف.. إنسان ليست له مطالب خاصة لنفـسه ومـن ليس بحاجة إلى شيء فهو سيد نفسه.

هكذا تعلمت من تجاربى فى الحياة..